

الفقه والحديث

في عهد المرابطين والموحدين (2)



د. عبد العزيز فارح

رئيس مختبر الأبحاث والدراسات في التراث الإسلامي بكلية الآداب وجدة.

من مؤلفاته:

- كتاب «مع السنة النبوية».
- كتاب «من ألقم الحجر إذ كذب وفجر وأسقط عدالة من قال من الصحابة ما له أهجر» للحافظ ابن دحية السبتي دراسة وتحقيق.
- كتاب «علم الجرح والتعديل وقواعده».

محنة المالكية أيام العبيديين بإفريقية:

م

تنسب الدولة العبيدية الفاطمية إلى عبيد الله⁽¹⁾ بن محمد بن عبد الله بن ميمون، كان يدعي أنه من أولاد جعفر الصادق، ولقب بالمهدي، وهو ليس بهاشمي ولا فاطمي، وإنما أبوه يهودي حداد كان بسلمية، -هي بلدية بالشام من أعمال حمص- كان فيه دهاء ومكر وحب كبير للتملك فسرى على أنموذج علي بن محمد الخبيث صاحب الزنج بحيث انتحل كثيرا من آراء الباطنية، فكان يقول إن لظواهر الآيات والأحاديث بواطن، هي كالب، والظواهر كالقشر. وقال لكل آية ظهر وبطن، فمن وقف على علم الباطن فقد ارتقى عن رتبة التكاليف.

ونسبت إليه طوام أعظم من ذلك كادعاء الربوية، ولذلك كان مبيحا للمحظورات محل لنفسه ولخواصه ما يريد من غير قيد، ويدعي أنه نائب الشرع، يجوز له ما لا يجوز لغيره⁽²⁾. وكان ابنه القائم مثله زنديقا يسب الأنبياء ويرتكب العظائم،

دار النحر في العذاب من عالم وعابد ليردهم عن الترضي عن الصحابة، فاختاروا الموت⁽⁴⁾، ونقل القاضي عياض عن أبي محمد الكستراقي أنه سئل عمن أكرهه بنو عبيد على الدخول في دعوتهم أو يقتل؟ قال: «يختار القتل ولا يعذر، ويجب الفرار، لأن المقام في موضوع يطلب من أهله تعطيل

جهاد المرابطين في الأندلس
كان عامل استقرار وقوة، وسببا في بقاء دولة الإسلام في الأندلس زهاء أربعة قرون أخرى، ودافعا قويا لحركة علمية كبرى عم إشعاعها بلاد الأندلس بأسرها، ووصل إلى عدد من دول أوروبا، بله بلاد المغرب والمشرق الإسلاميين وما والاها من البلاد.

وكانا يكاتبان القرامطة في البحرين ويحرضانهم على حرق المساجد والمصاحف، وقد وقع منهم ذلك وأكثر، بحيث أخذوا الحجيج وقتلوا وسبوا واستباحوا حرم الله وقلعوا الحجر الأسود.

لما رأى عبيد الله المهدي في بداية أمره ما يرومه من

الشرائع لا يجوز⁽⁵⁾»، ولئن فر عدد من الناس فقهاء وغيرهم واختفى آخرون خوفا على دينهم وسنيتهم، فإن جمعا من العلماء فضلوا الصمود والمقاومة دفاعا عن العقيدة وذودا عن المذهب المالكي، وقد سجل لهم ابن ناجي في «معالم الإيمان» هذا الشرف فقال: «وجزى الله مشيخة القيروان: هذا يموت، وهذا يضرب، وهذا يسجن، وهم صابرون لا يفرون، ولو فروا لكفرت العامة دفعة واحدة»⁽⁶⁾.

لم يستسلم أهل القيروان للأمر الواقع ولم يخضعوا للسيطرة العبيدية الفكرية والعقدية، واجتهد علماءهم في الحفاظ على سنتهم ونظموا مقاومة بطولية لهؤلاء الروافض وصمدوا على ذلك، وكان من ذلك مقاطعتهم للجمعات التي يعلن فيها سب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كما يذكر ابن عذارى المراكشي في كتابه البيان المغرب⁽⁷⁾. وانضم الفقهاء والعلماء من المالكية إلى ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد الخارجي⁽⁸⁾ وشاركوا

الملك لا يمكن أن يحصل بالعراق ولا بالشام، بعث داعيين داهيتين هما الأخوان أبو عبيد الشيعي⁽³⁾، وبعثه إلى إفريقية، وأبو العباس وبعثه إلى اليمن.

استطاع الأول منهما أن يمهّد القواعد للمهدي، ويوطد له البلاد بفضل دهائه وما أظهره من الزهد والتأله والمعرفة...

تملك عبيد الله إفريقية وقتل كل من حاربه أو عارضه في تلك البلاد وما والاها كطرابلس وبرقة وصقلية، وقتل داعييه وعضديه أبي عبد الله الشيعي وأخيه أبي العباس ذبحا سنة 298هـ، وضيق الخناق على العلماء والفقهاء ليصرفهم عن المذهب السني عامة، والمذهب الفقهي المالكي خاصة، وحاربهم وعذب طائفة منهم، وأمعن في قتل كثير منهم، وبت أدعياءه يسبون الصحابة علنا وينالون منهم، ويسفهون المذهب المالكي وأصحابه. ذكر أبو الحسن القابسي في كتابه الملخص أن الذين قتلهم عبيد الله وبنوه أربعة آلاف في

أربع وثلاثين. وكان غرض بني عبيد أخذه حيا ليعذبوه⁽¹¹⁾.

- أبو بكر محمد بن اللباد القيرواني الذي كان يدرس الفقه المالكي للطلبة رغم الحصار والاضطهاد العبيدي، عذب مرارا ثم وضع رهن الإقامة الجبرية⁽¹²⁾.

ولما مات رثاه تلميذه ابن أبي زيد القيرواني بقصيدة عدد فيها خصاله وذكر محنته زمن العبيديين وصبره على الشدائد لنصرة الدين منها قوله:

حتى استنار به الإسلام في بلد
لولاه مات به الإسلام واندفنا
الفقه حلتة والعلم خليته
والدين زينته والله شاهدنا

- ابن التبان أبو محمد بن إسحاق من أشهر علماء إفريقية وصلحائها، قال القاضي عياض في مستهل ترجمته: "الفقيه الإمام، كان من العلماء الراسخين والفقهاء المبرزين ضربت إليه أكباد الإيل من الأمصار لعلمه بالذب عن مذهب أهل الحجاز ومصر ومذهب مالك، وكان أحفظ لناس بالقرآن والتفنن في علومه والتكلم في أصول التوحيد... وكان من الحفاظ... عالما باللغة والنحو والحساب والنجوم..."⁽¹³⁾ ونقل عن أبي الحسن القابسي قوله: "رحمك الله يا أبا محمد، فلقد كنت تغار على المذهب وتذب عن الشريعة"⁽¹⁴⁾. كان ابن التبان من علماء القيروان الذين ابتلوا بالاضطهاد العبيدي ومن الذين

فيها، ودعوا الناس إلى الانخراط فيها دفاعا عن نصرته المذهب السني ومذهب مالك، وإلى الخروج إلى الأسواق بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى أزواجه⁽⁹⁾. وكادت ثورة الفقهاء المالكية أن تعصف بالعبيديين الذين انحسر نفوذهم في المهديّة فقط لكن الأمر انتهى بمذبحة صفوف من الفقهاء أن غدر بهم أبو زيد الخارجي وتركهم عرضة للبطش العبيدي، ثم هزيمة أبي يزيد نفسه وموته مسجوناً متأثراً بالجراح.

الفقهاء المالكية الذين ثاروا على العبيديين:

- الفقيه ابن خيرون الذي كان يحذر العامة من المذهب الشيعي الفاطمي من نحلة العبيديين، ويدعوهم إلى التمسك بالمذهب السني، ابتلي وصبر على البلاء حتى نال الشهادة رفسا بأرجل السودان بعد طول تعذيب.

- أبو الفضل عياش بن عيسى بن العباس المسي المتوفى شهيدا سنة 333هـ، قال أبو العرب: «ختم الله تعالى الكريم بالشهادة له بعد هذه الفضائل في جهاد بني عبيد»⁽¹⁰⁾.

- ربيع بن سليمان بن عطاء الله القطان القيروان، كان رأسا في الزهد والرقائق، وكان جعل على نفسه ألا يشبع من طعام ولا نوم حتى يقطع الله دولة بني عبيد. ركب يوما فرسه وفي عنقه المصحف وحوله جمع كبير، وهو يتلو آيات جهاد الكفرة. فاستشهد في خلق من الناس يوم المصاف في صفر سنة

فاتبعه خلق من الناس مما أزعج العبيدين الذين أرسلوا عامل القيروان بجنده وأعوانه لقتله في مسجده طعنا بالسكاكين، وذلك يوم الخميس الثاني عشر من شوال سنة سبع وأربعمئة للهجرة، وهو جالس في حلقة وحوله أصحابه بعد صلاة العصر،

يصعب في التأريخ للعلوم بالمغرب الإشارة إلى العلم الذي كان محط العناية في البداية قبل غيره، وإن استطعنا أن نجزم بأن الاهتمام كان منصبا على القرآن الكريم والحديث الشريف وما استنبط منهما من فقه.

فالتهمت الانتفاضة واستعرت نارها في عدد من مدن إفريقية وكان من نتائج ذلك، القضاء على المتهذبين بالمذهب العبيدي الشيعي في مختلف المدن وظهور المعز بن باديس الصنهاجي بمذهب أهل السنة، إلى أن انتهى به الأمر إلى العدول سنة 445هـ عن مذهب الفواطم بمصر والأخذ بالسنة ومذهب مالك، وإعلانه الانتماء إلى الدولة العباسية.

- ابن أبي زيد القيرواني ناصر العقيدة السنية والمذهب المالكي.

في هذه الظروف أيضا نشأ الإمام أبو محمد بن أبي زيد القيرواني، وطلب العلم على يد هؤلاء، محبا للسنة والعقيدة الصحيحة والمذهب المالكي، متشعبا بروح الذود عن ذلك كله.

كان ابن أبي زيد وهو طالب يتسلل خفية إلى بيت شيخه أبي بكر محمد بن اللباد القيرواني، لأنه كان قد منع من الخروج من بيته، ومنع الناس من زيارته والالتقاء به⁽¹⁸⁾ كما مر بنا آنفا.

دعاهم صاحب القيروان ليشرقهم⁽¹⁵⁾، لكنه أفحم من ناظروه وأبطل حججهم وأقاولهم⁽¹⁶⁾. توفي عام 371هـ.

- أبو إسحاق القلانسي إبراهيم بن عبد الله الزبيدي من فقهاء إفريقية وفضلائها. كان عالما بالكلام والرد على

المخالفين وله في ذلك تواليف حسنة، أشهرها كتاب في الإمامة والرد على الرافضة، امتحن بسببه على يدي أبي القاسم ابن عبيد الله الرافضي، ضربه سبعمئة سوط وحبسه في دار البحر أربعة أشهر⁽¹⁷⁾. توفي عام 361هـ.

- أحمد بن أبي الوليد، كان من المناوئين للعبيدين ومن المحرضين على الخروج عليهم، خطب الناس في الجمعة فقال: "جاهدوا من كفر بالله وزعم انه رب من دون الله، وغير أحكام الله، وسب نبيه وأصحاب نبيه، اللهم إن هذا القرمطي الكافر المعروف بابن عبيد الله المدعي الربوبية، جاحد لنعمتك، كافر بربوبيتك، طاعن على رسلك، مكذب بمحمد نبيك سافك للدماء، فالعنه لعنا ويلا، واخزه خزيا طويلا، واغضب عليه بكرة وأصيلا".

- أبو علي حسن بن خلدون البلوي، كان من اشد الناس مقاومة للعبيدين بالقيروان، ومن اشد الناس محاربة لأهل البدع والروافض،

وشارك -وعمره ثلاث وعشرون سنة- في ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد إلى جانب فقهاء المالكية.

وألف قبيل ذلك في سنة 327هـ كتابه المشهور بالرسالة، يطلب من شيخه محرز ابن خلف، ضم فيه ما يحتاجه طلبة العلم الناشئون من أحكام أولية تحفظ عقيدتهم السنية ومذهبهم الفقهي المالكي، ولا تدع لديهم فراغا ينفذ خلاله فكر الروافض.

اشتهرت "الرسالة" في عديد من الأقطار كالعراق واليمن والحجاز والشام ومصر وبلاد النوبة وصقلية وبلاد السودان، بالإضافة إلى جميع بلاد إفريقية والمغرب والأندلس، وتنافس الناس في اقتنائها حتى كتبت بماء الذهب⁽¹⁹⁾، وبيعت أول نسخة منها ببغداد في حلقة أبي بكر الأبهري⁽²⁰⁾، بعشرين دينارا ذهباً⁽²¹⁾، وعول عليها العلماء في حلقات دروسهم وألزموا طلبتهم بحفظها والعكوف عليها، ثم وضعت عليها الشروح والتعليقات والخواشي ما يطول ذكره⁽²²⁾. لقد كتب الله لهذه الرسالة أن تنتشر وتكون عمدة الطلبة منذ زمن تأليفها إلى يومنا هذا، وذلك بفضل عوامل كثيرة منها الإيجاز خلاف كتب المذهب السائد آنذاك التي كان يغلب عليها التفرع والتفصيل والعبارة المغلقة. ولا ننسى إضافة إلى ذلك توفيق الله تعالى وتسديده، فإن ما كان لله دام واتصل، وما كان لغيره انقطع وانفصل، ولقد كان ابن أبي زيد في هذه الفترة ضمن فقهاء المالكية وطلبه العلم الذين يجاهدون

ويشتركون في مقاومة الهجمة العبيدية على العقيدة السنية والمذهب المالكي.

وألف ابن أبي زيد كتابا آخر في رد ما يرمى به بالمذهب المالكي من شكوك ومطاعن سماه "كتاب الذب عن مذهب مالك"⁽²³⁾ وألف أيضا كتابا يبين فيه قوة حجة المالكية في التعويل على عمل أهل المدينة سماه "كتاب الاقتداء بأهل المدينة".

وخدم أشهر كتاب يعول عليه المالكية وهو المدونة، فألف حوله كتابه المشهور "النوادر والزيادات"، وهو كتاب كبير أبان فيه عن قوة حفظه وسعة معرفته، وألف أيضا "مختصر المدونة" قال القاضي عياض: "وعلى كتابيه هذين المعول بالمغرب في التفقه"⁽²⁴⁾.

هكذا تعدد جهاد ابن أبي زيد في الذود عن المذهب المالكي وصار أهلا بأن يكون "إمام المالكية في وقته وقودتهم، وجامع مذهب مالك وشارح أقواله... ذابا عن مذهب مالك، قائما بالحجة عليه، بصيرا بالرد على أهل الأهواء"⁽²⁵⁾. بل ويعرف بهالك الصغير كما قال الشيرازي في طبقاته⁽²⁶⁾.

وتستوقفنا إلى جانب علمه الغزير وذوذه عن المذهب، صفاته وسلوكه وعلاقته الإنسانية بمن حوله من العلماء وطلبة العلم وغيرهم من الناس، لقد كانت علاقته بهؤلاء تتجاوز حلقات الدرس، واشتهر عنه في هذا المجال تشجيعه طلبة العلم على القراءة والتحصيل، وألف رسالة ضمنها نصائح وتوجيهات

الفردوس المفقود، فقد كانت الرأس المرفوع للعالم الإسلامي ومركز الإشعاع القوي الذي نفذ إلى الغرب المسيحي، يحمل معه فكر الشرق وقيمه. ولكن ذلك الفردوس المفقود عرف إلى جانب الازدهار والإشعاع فترات ضعف وتعثر، قوضت البناء الجميل وخلخلت الصف المتناسك، ففي تاريخ الأندلس يذكر المؤرخون أن دولة بني أمية أعادت بناء مجدها المتهالك في الشرق، لكنها لم تكن تمتلك القوة والمنعة لتستمر طويلاً، ومن ذلك حب الرياسة الذي يعمي فيودي، فكيف يحكم

الدولة التي هي في احتكاك دائم وحروب مستمرة مع الإفرنجية من لم يناهز الحلم بعد، أو من كان ضعيف الشخصية فاقدا لمقومات الحاكم الحازم العادل، القوي الأمين، زد على ذلك إذا كانت مؤسسات الدولة مبنية على الانقسام والتفكك، وإذا كانت مؤسسة الجيش تتكون من طوائف غير متجانسة ولا موحدة، فالجيش في الدولة الأموية بالأندلس كان يتكون من العرب القادمين من الشرق⁽²⁸⁾، ومن البربر القادمين من المغرب، ومن المستعمرين⁽²⁹⁾، والصقالبة⁽³⁰⁾، وما كان أسهل من أن تثور طائفة وتحدث الفتنة التي

اشتهرت "الرسالة" في عديد من الأقطار كالعراق واليمن والحجاز والشام ومصر وبلاد النوبة وصقلية وبلاد السودان، بالإضافة إلى جميع بلاد إفريقيا والمغرب والأندلس، وتنافس الناس في اقتنائها حتى كتبت بماء الذهب، وبيعت أول نسخة منها ببغداد في حلقة أبي بكر الأبهري، بعشرين ديناراً ذهباً، وعول عليها العلماء في حلقات دروسهم وألزموا طلبتهم بحفظها والعكوف عليها، ثم وضعت عليها الشروح والتعليقات والحواشي ما يطول ذكره

لهم سماها «رسالة طالب العلم»⁽²⁷⁾.

ولم يكتف بذلك، بل قدم لهم المساعدات المادية حتى لا تشغل قلوبهم بغير الحفظ والطلب، وليستمر المذهب المالكي باستمرار من يطلبه ويحفظ أصوله ويرتقي فيه إلى رتبة العلماء فيصمد أمام محاولات العبيدين للقضاء عليه.

والخلاصة أنه رغم تفكك الدولة الإسلامية وانقساماتها وكثرة المحن، فإن الحالة الفكرية والثقافية كانت على مستوى كبير

من الازدهار، ولعل ما ذكرناه من اضطهاد العبيدين للعلماء، ومحاولة صرف الناس عن مذهبهم وسنيتهم، وما أشاعوه من أفكار الروافض وعقائده، كان محفزاً للتأليف المضاد بقوة ويغزارة، ذبا عن المذهب المالكي وإمامه وأصوله وعقيدته السنية، وإن غلب عليه منطق الجدل والدفاع ورد الشبهات عوض الإنتاج الخصب، وتطوير ما بدأه الرواد الأوائل وتجديد ما اندرس منه.

عوائق المذهب المالكي في الأندلس في القرن الخامس الهجري:

لم يخطئ من بكى الأندلس حين فقدتها وسماها

لم يدفنه أحد⁽³⁵⁾. ومنهم حافظ المغرب أبو عمر يوسف ابن عبد البر القرطبي النمري المتوفى سنة 463هـ⁽³⁶⁾، فقد خرج من قرطبة كغيره من العلماء فرارا من الفتنة، وتنقل في بلاد الأندلس شرقا وغربا يبحث عن مستقر آمن، فحط رحاله بإشبيلية، ثم بدانية، ثم ببطليوس.

كان الحافظ ابن عبد البر ممن بلغ درجة الاجتهاد، ولكنه ظل مجتهدا داخل المذهب بصفة عامة لا يخرج عنه. وهو ممن شارك في إرساء قواعد المدرسة المالكية بالغرب الإسلامي، وتشبث بنائها، وخدمة أصولها، ورد الفروع إلى الأصول.

لقد كان الأندلسيون يعكفون على مدونة سحنون درسا ودراسة وتدرسا وشرحا وتعليقا، ويعكفون مثل ذلك على الواضحة لعبد الملك بن حبيب. وبقي المنهج العام أسير الكتابين وما ماثلها، حتى ألف ابن عبد البر كتابية التمهيد والاستذكار فغير المنهج السائد والطريقة المألوفة، مجددا ومبتكرا وفتح أبواب النظر والاجتهاد منهجا ومضمونا، ومؤسسا لفن فقه الحديث أو فقه السنة بالديار الأندلسية، مجيدا في ذلك ومفيدا بما أودعه في كتبه في هذا المجال⁽³⁷⁾ من غرر الفوائد، ففيها تأصيل الفروع، وفيها جمع لآراء الفقهاء وأقوالهم، منذ عهد الصحابة والتابعين ممن ساهم ففقهاء الأمصار، وعلماء الأقطار غير المالكية أيضا، وفيها ذكر اختلاف أقوال مالك وأصحابه، واختلاف

تأني على الأخضر واليابس لو لم تكن الأسباب ذات بال. من ذلك ما عرف في تاريخ الأندلس بالفتنة البربرية نسبة إلى ثورة البربر في الجيش ومحاصرتهم لقرطبة، ثم لقصر عبد الرحمن العامري حيث احتزوا رأسه ووضعوا بذلك نهاية لدولة بني عامر⁽³¹⁾، وقامت فتنة عظيمة وكثر القتل والهرج. بايعوا هشام بن سليمان ابن أمير المؤمنين الناصر، وتحرك العرب وقبضوا على هشام فضرب عنقه، فبايع البربر سليمان بن الحكم ولقبوه بالمستعين، فسار في جموع البرابرة والنصرانية إلى قرطبة فاجتاحها، ثم دارت الدائرة عليه وهزم ففرق بجنوده في البسائط والقرى، ينهبون ويقتلون، ثم جمعوا صفوفهم واقتحموا قرطبة مرة أخرى بعد حصار طويل سنة 403هـ⁽³²⁾، وفتكوا بالخليفة هشام المؤيد، وعاثوا في المدينة فسادا وقتالا وتخريبا ووثبوا على الأعمال فحكموا المدن العظيمة، وتقلدوا الأعمال الواسعة، وكان ذلك بداية ظهور ملوك الطوائف وتقسيم الأندلس الإسلامية إلى إمارات صغيرة ضعيفة متناحرة، تستعين أحيانا بالنصارى في حروبها وتخضع لحكمهم.

أثرت هذه الفتنة على الحياة العلمية تأثيرا واضحا، بحيث حدثت من حركة العلماء وطلاب العلم، وحالت دون رحلاتهم العلمية، ولحق الضرر بعدد من العلماء عامة، منهم فقيه المالكية في وقته ومؤرخ الأندلس ومحدثها أبو الوليد بن الفرضي⁽³³⁾، قتله البربر في شوال من عام 403هـ⁽³⁴⁾، وظل ثلاثة أيام

هو من أشهر كتب الحافظ ابن عبد البر، ومن أحسن كتب الفقه الحديث عامة، وشروح موطأ مالك خاصة، فقد قال عنه الإمام ابن حزم: "وهو كتاب لا أعلم في الكلام على فقه الحديث مثله، فكيف أحسن منه"⁽⁴²⁾ وقال عنه الشيخ عبد الله بن الصديق رحمه الله: "إن شرح الموطأ كان دينا على المالكية، أذاه عنهم الحافظ ابن عبد البر بكتاب التمهيد"، وإذا قال الشافعية في حق البيهقي: إن له منة على الإمام الشافعي، لأنه خدم كتبه، وخرج أحاديثها وأيد مذهبه، فلنا أن نقول: لابن عبد البر منة على الإمام مالك، لأنه خدم موطأه ووصل منقطعاته ومرسلاته، وأسند بلاغاته، وعين مبهمات، وعدد طرق موصولاته"⁽⁴³⁾.

وليس في كلام الرجلين مبالغة في التنويه بهذا الكتاب، فإنه أحق بمثل هذا التنويه وأهله، فقد أجاد فيه صاحبه وأفاد، وبرز وتفرد، وصيره بما أودعه فيه من غرر وفوائد مرجع المتجر، ونجعه القاصد المشمر.

لقد كان الأندلسيون يعكفون على مدونة سحنون درساً ودراسة وتدريساً وشرحاً وتعليقاً، ويعكفون مثل ذلك على الواضحة لعبد الملك بن حبيب. وبقي المنهج العام أسير الكتابين وما ماثلها، حتى ألف ابن عبد البر كتابية التمهيد والاستذكار فغير المنهج السائد والطريقة المألوفة، مجدداً ومبتكراً وفاتحاً أبواب النظر والاجتهاد منهاجاً ومضموناً، ومؤسساً لفن فقه الحديث أو فقه السنة بالديار الأندلسية، مجيداً في ذلك ومفيداً بما أودعه في كتبه في هذا المجال من غرر الفوائد، ففيها تأصيل الفروع، وفيها جمع لآراء الفقهاء وأقوالهم، منذ عهد الصحابة والتابعين ممن ساهم ففقهاء الأمصار، وعلماء الأقطار غير المالكية أيضاً، وفيها ذكر اختلاف أقوال مالك وأصحابه، واختلاف الروايات عنه، وفيها تتبع الألفاظ الحديث الواحد إذا تعددت طرقه... وغير ذلك من الفوائد التي تبوأَتْ بفضلها مؤلفاته المكانة العالية،

الروايات عنه، وفيها تتبع الألفاظ الحديث الواحد إذا تعددت طرقه... وغير ذلك من الفوائد التي تبوأَتْ بفضلها مؤلفاته المكانة العالية، ودفعت ابن حزم إلى أن يقول: "ولصاحبنا أبي عمر كتب لا مثيل لها"⁽³⁸⁾. وقال في شأنها صاحب الصلة: "وكان موفقاً في التأليف معاناً عليه، ونفع الله بتأليفه"⁽³⁹⁾.

وحق للحافظ الذهبي أن يقول عنها: "وله تواليف لا مثيل لها في جميع معانيها"⁽⁴⁰⁾.

وأما الحافظ ابن كثير فقال: "اعتنى الناس بكتاب "الموطأ" وعلقوا عليه كتباً جمّة، ومن أجود ذلك كتابي"⁽⁴¹⁾ التمهيد والاستذكار، للشيخ أبي عمر بن عبد البر النمري القرطبي رحمه الله.

كتاب التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد لأبي عمر يوسف ابن عبد البر الأندلسي (463هـ).

إلى شرح النص الحديثي واستدرار الأحكام الفقهية منه، فإنه يورد الأحاديث والآثار أيضاً، وقد يكثر منها في الموضوع الواحد⁽⁴⁶⁾.

لقد ضمن كتاب التمهيد فعلاً -بفضل ذلك كله- ثروة حديثية حافلة لا يستغنى عنها في الدراسات الحديثية، خصوصاً حينما يتعلق الأمر ببيان التدليس مثلاً⁽⁴⁷⁾، أو بيان ضعف راوٍ في السند، أو غير ذلك من أخطاء الأسانيد كالقلب، أو التصحيف، أو الانقطاع، أو بيان المبهات⁽⁴⁸⁾.

- كتاب الاستذكار لابن عبد البر:

من مميزات كتاب الاستذكار كونه موسوعة حديثية ضخمة، فقد جمع فيه ما ينيف عن ستين ألف حديث. وهي مادة غزيرة ساهمت بشكل كبير في بناء الفقه الإسلامي، والإجابة عن العديد من المسائل والقضايا التي طرأت في المجتمع الإسلامي عبر حقب من الزمان.

- الكافي في فقه أهل المدينة المالكي:

كتاب لطيف في حجمه، انتقاه من أشهر مصادر المذهب وأصوله، وما يرويه عن شيوخه بالأسانيد المتصلة كعاداته، عارضاً أقوال الإمام مالك وأصحابه واختلافهم، مناقشاً ومعللاً ومرجحاً بقوله: "قال أبو عمر"، أو "وهو الصحيح عندي" أو "والأول أصح" أو "وهو صحيح في النظر والاحتياط" أو "والأول أصحها وأشهرها". وإن التزم في مقدمته الاقتصار على ما به الفتوى في المذهب المالكي.

إن كتاب التمهيد رغم كونه شرحاً للموطأ، فإنه متعدد المواضيع، فهو في الحديث وعلومه من مصطلح وجرح وتعديل وأحوال الرجال وأخبارهم، وهو في فقه السنة وأحكامه ومذاهبه، وهو أيضاً في بعض أحداث السيرة وغيرها، وشرح للغريب من الألفاظ بالاستناد إلى أقاويل أهل اللغة.

أما من الجانب الحديثي، فإن كتاب التمهيد زاهر بالنصوص التي يسوقها ابن عبد البر بالأسانيد المتصلة، سواء في مقدمة الكتاب - وهي في بعض مباحث علم مصطلح الحديث وذكر عيون من أخبار مالك بن أنس، وذكر موطئه - أو في سائر الكتاب، فإن من عاداته - كما في سائر كتبه - تعزيز أقواله بالشواهد والأدلة المتنوعة، منها الأحاديث والآثار وتكثر هذه النصوص في القسم الأكبر من الكتاب المخصص لشرح الموطأ، فمن منهج ابن عبد البر قبل التصدي لفقه الحديث:

- التعريف بشيوخ مالك الذين روى عنهم أحاديث الموطأ.

- وتتبع الأحاديث المرسلة والبلاغات، ووصلها من غير طريق مالك، فقد راح يبرهن على صحة ما يتبناه من أن مراسيل مالك صحيحة، إذ تتبع ما في الموطأ من مراسيل وبلاغات، وعددها أحد وستون حديثاً⁽⁴⁴⁾، فوصل كل مقطوع جاء متصلاً، وكل مرسل جاء مسنداً من غير رواية مالك، اعتماداً على رواياته الخاصة عن شيوخه، إلا أربع بلاغات لم يجد لها إسناداً فتركها كذلك⁽⁴⁵⁾ وحينما ينتقل

لقد سعى ابن حزم بما امتلكه من العلم بالأندلس، إلى إبطال حججهم وتسفيه أقوالهم⁽⁵¹⁾، قال القاضي عياض في وصف ذلك وهو يتحدث عن القاضي أبي الوليد الباجي أول مقدمه إلى الأندلس بعد رحلته المشرقية: "ووجد عند وروده بالأندلس لابن حزم الداودي صيتا عاليا، وظاهريات منكرة، وكان لكلامه طلاوة، وقد أخذت قلوب الناس⁽⁵²⁾، وله تصرف في فنون تقصر عنها ألسنة فقهاء الأندلس في ذلك الوقت، لقلة استعالمهم النظر، وعدم تحققهم به، فلم يكن يقوم أحد بمناظرته، فعلا بذلك شأنه، وسلموا الكلام له على اعترافهم بتخليطه..."⁽⁵³⁾

فلما عاد أبو الوليد الباجي من رحلته العلمية عقدت له مجالس لمناظرته، فاستطاع بفضل سعة علمه وكثرة اطلاعه وتمكنه من فني الجدل والمناظرة أن يبطل أقوال ابن حزم وحججه، ويرد تشكيكه في المذهب المالكي وأصوله، وينتصر لصاحب المذهب وأقواله ويعيد الاعتبار لجهود المالكية وكتاباتهم واجتهاداتهم، لقد نصر أبو الوليد الباجي مذهب مالك وأنصف أصحابه، فاندحر المذهب الظاهري وولى أنصاره القهقري، قال الإمام ابن العربي: "إن الله تدارك الأمة به وبالأصيلي حيث رحلوا وأفادوا وجاءوا بلباب العلم فرشوا على القلوب الميتة، وعطروا الأنفاس الذفرة"⁽⁵⁴⁾. وتذكر المصادر أن ابن حزم خرج من البلد الذي يقيم فيه الباجي معترفا له بقوته في النقد والمناظرة وبكثرة

هكذا وفق طريقته المعهودة في كتبه الأخرى، يورد أقوال إمام المذهب وأصحابه وأقوال غيره من الفقهاء مقارنا وشارحا للنصوص ومنبها إلى المقاصد، ثم مرجحا ترجيح العالم الناقد المتبصر الذي لا يجمد على رأي غيره: يعرضه عرض المتبني أو المقلد ثم يمضي.

بين ابن عبد البر في الكافي مصادره فيه والتزامه بمذهب مالك، يقول: "اعتمدت فيه على علم أهل المدينة، وسلكت فيه مسلك مذهب الإمام أبي عبد الله مالك بن أنس رحمه الله، لما صح له من جمع مذاهب أسلافه، من أهل بلده، مع حسن الاختيار، وضبط الآثار، فأتيت فيه بما لا يسع جهله لمن أحب أن يسم بالعلم نفسه، واقتطعت من كتب المالكيين، ومذهب المدنيين، واقتصرت على الأصح علما، والأوثق نقلا، فعولت منها على سبعة قوانين"⁽⁴⁹⁾. دون ما سواها، وهي: الموطأ، والمدونة، وكتاب ابن عبد الحكم، والمبسوطة لإسماعيل القاضي، والحاوي لأبي الفرج، ومختصر أبي مصعب، وموطأ ابن وهب وفيه من كتاب ابن المواز، ومختصر الوقار، ومن العتبية، والواضحة فقر صالحة"⁽⁵⁰⁾.

الصراع بين الظاهرية والمالكية:

إذا ذكر المذهب الظاهري في الأندلس ذكر رائده العلامة أبو محمد بن حزم، فقد كان حقا المنافع عن هذا المذهب والمبشر به، والمجادل لخصومه الجدل العنيف. ولم يكن خصومه بالأندلس إلا المالكية.

اطلاعه وسعة معرفته، قائلا: "لم يكن للمالكية بعد عبد الوهاب مثل أبي الوليد"⁽⁵⁵⁾.

من كتب أبي الوليد الباجي في خدمة المذهب المالكي:

لا تخلو كتب أبي الوليد من نفحات المنافحة عن الإمام مالك ومذهبه وأصحابه، سواء كانت كتب حديث أم كتب أصول وفقه، إلى جانب ما ألفه في فن الجدل والمناظرة. ولناخذ أشهرها، نعرف به ونجلي قيمته العلمية وأثره في خدمة العلم عامة، وما يخص المذهب المالكي خاصة:

- كتاب المنتقى:

وهو شرح لموطأ الإمام مالك انتقاه من كتابه الاستيفاء طلبا للاختصار والتيسير، قال الإمام الباجي في مقدمة هذا الكتاب: "أما بعد وفقنا الله وإياك لما يرضيه، فإنك ذكرت أن الكتاب الذي ألفت في شرح الموطأ المترجم بكتاب "الاستيفاء" يتعذر على أكثر الناس جمعه، ويبعد عنهم درسه، لاسيما لمن لم يتقدم له في هذا العلم نظر، ولا تبين له فيه بعد أثر... فأجبت إلى ذلك، وانتقيته من الكتاب المذكور، على حسب ما رغبته وشرطته"⁽⁵⁶⁾.

يشرح الإمام الباجي في كتابه "المنتقى" ما تضمنه الموطأ برواية يحيى بن يحيى الليثي من الأحاديث المسندة وغيرها، مع المسائل الفقهية وأقوال العلماء، لكن من غير أن يقف عند أسانيد الأحاديث كما فعل الحافظ ابن عبد البر في التمهيد. لذلك فإن الطابع الغالب على

كتاب "المنتقى" هو شرح الأحاديث والوقوف على المسائل الفقهية التي تزخر بها، حتى إن المؤلف يقسم شرح الحديث إلى فصول انطلاقا من الفقرات أو المسائل التي يتضمنها ذلك الحديث. وفي غضون ذلك يورد أقوال الفقهاء المالكية، وقد يحفل بالجانب اللغوي فيشرح الغريب وغيره ويورد أقوال أصحاب اللغة، ويبين ما يترتب على ذلك من الأحكام الفقهية وما ينتج عنه من الخلاف.

هكذا كان فقهاء المالكية بالأندلس -وهم كثير- يذبون عن مذهبهم ويردون هجوم ابن حزم وغيره عليه، ويبينون أصالته وانبئاه على القرآن والسنة مفسرة نصوصهما وفق ضوابط وأصول، ولم يكن هؤلاء العلماء في تلك الجهود طلاب دنيا ومكاسب مادية، فقد زعم الأستاذ سالم يفوت⁽⁵⁷⁾ أن هؤلاء غدوا أكبر عضد لأمرء الطوائف في تبرير طغيانهم وظلمهم وانحرافهم ابتزازا لأموالهم، وسعيا وراء المناصب عندهم، فاحتضنهم الأمرء الطغاة فأغدقوا عليهم الأموال.

وزعم أيضا أن القياس والاستحسان قد أصبحا مركبا ذلولا استطاع به هؤلاء الفقهاء أن يوائموا بين أحكامهم وفتاويهم، وبين مقتضيات الحياة الفاسدة! ...⁽⁵⁸⁾

إن هذا الكلام أبطل من الباطل، ومحض هراء، وهو ينم عن قراءة معكوسة للتاريخ وسوء ظن بالعلماء حماة الشريعة عبر الزمان، وفهم خاطئ لمعنى القياس والاستحسان عند الأصوليين.

الأحكام، وكتاب " أعز ما يطلب"، و"المرشدة"، و"مختصر مسلم"، وكتب أخرى في العقيدة وغيرها.

وتابعه في ذلك خليفته عبد المومن بن علي الكومي (558هـ) الذي عرف باهتمامه بالعلوم والفنون، وهو الذي أنشأ مدرسة الحفاظ بمراكش، حيث جمع فيها المئات من الطلبة المصامدة وغيرهم، وألزمهم حفظ القرآن والموطأ وعقيدة المهدي ومرشدته، وكان ابنه يوسف عالماً حافظاً يجمع كآبیه صفوة العلماء والمفكرين، وهو الذي احتضن العلامة أبا الوليد ابن رشد وولاه قضاء إشبيلية لما كان واليها، وبعد وفاة أبيه ولاه طائفة من المناصب القضائية والإدارية بالعدوتين.

أما يعقوب المنصور فقد فاق غيره في إحياء العلوم وتقريب العلماء، وفي عهده ظهرت نهضة علمية كبيرة وعقدت المجالس حيث المناظرات بين العلماء بحضرة المنصور.

ولم تكن مجالس الأمراء في الولايات التابعة للموحدين أقل شأنًا من مجالس العاصمة بل كانت عامرة أيضا.

وبالجملة فقد كان عصر الموحدين عصر علم حقا، سمح بظهور طائفة كبيرة من العلماء في شتى الفنون كالقراءات والحديث والأدب والطب...⁽⁶¹⁾

ولكن الميدان الذي كان محط عناية الموحدين أكثر من غيره، هو ميدان الحديث، فقد وجه الموحدون الناس إلى كتب السنة النبوية

المذهب المالكي في عهد الموحدين:

واصل علم الفقه على مذهب الإمام مالك تفرعه وانتشاره في العهد الأول من الدولة الموحدية كما كان من قبل أو أكثر⁽⁵⁹⁾ في إطار نهضة علمية شاملة شجع عليها قادة هذه الدولة وأمراؤها⁽⁶⁰⁾، لكن مع ميل الفقهاء إلى الترجيح والتأويل ونبد التعصب للأئمة السابقين، والتقليل من الإكباب على النظر في علم الفروع المجرد، المعول على أقوال أئمة المذهب، وذلك بالانصراف على دراسة الفقه في أصلية العظميين -الكتاب والسنة وما يرجع إليهما-، وهو سبب صمود المذهب ومنعته، وهو جوهر ما يتنادى به الخصوم أصحاب الاتجاه السائد الذي ارتضته الدولة ودعت إليه، وهو الرجوع إلى الكتاب والسنة، ونبد آراء الرجال وكتبهم في الفروع، خاصة في عهد يعقوب المنصور الموحيدي، الذي اشتط في تطبيق هذه الدعوة وإلزام الناس بها.

ظاهرية ابن حزم في حياة الموحدين:

كان حكم الموحدين يتسم بطابع ديني عميق، نتجت عنه حركة علمية كبيرة، فقد كان أكثر ملوك الموحدين وأمرائهم من أهل العلم والمعرفة لترابط السياسي بالثقافي في حكمهم.

يعد المهدي ابن تومرت (524هـ) مؤسس الدولة الموحدية عالماً ومشجعاً للعلماء صنف كتباً مشهورة عند الموحدين كـ"محاذي الموطأ" الذي حذف أسانيده وأعاد ترتيبه حسب

للخروج من دائرة التقليد المذهبي، ونبذ كتب الفروع، إما تطبيقاً لاختيار تبناه مؤسس الدولة الموحدية المهدي ابن تومرت ثم عبد المؤمن بن علي، ولقي من جاء بعدهما من الخلفاء في كتب ابن حزم ومذهبه توافقاً مع ذلك الاختيار، فأعجبوا به وفضلوه على غيره من المذاهب الفقهية، وإما تأثراً بالرجل ابتداء، فدعوا الناس إلى منهجه العلمي

الداعي إلى نبذ تقليد المذاهب الفقهية، والتمسك بالكتاب والسنة، وقد قال يعقوب المنصور لما وقف على قبر ابن حزم: "إن كل العلماء عيال عليه"⁽⁶²⁾.

وقد كان الأمراء الموحدون أنفسهم محدثين حفاظاً، فقد ذكر صاحب المعجب أن يعقوب المنصور كان يحفظ أحد الصحيحين، وكان يوسف بن عبد المؤمن "يحفظ متون الأحاديث ويتقنها"⁽⁶³⁾.

وعد المأمون أيضاً من حفاظ الحديث، كان يسرد صحيح البخاري والموطأ وسنن أبي داود⁽⁶⁴⁾.

أما الأمير إبراهيم بن يوسف فلم يكن في العلماء بعلم الأثر المتفرغين لذلك⁽⁶⁵⁾.

وكان الأمير الشاعر أبو الربيع سليمان الموحدي قد أخذ الحديث عن شيوخ وقته

وغدا المحدثون الطبقة المفضلة عند الموحدين، فإليهم كانت تصرف العناية الكبيرة وعليهم تغدق الأموال ونالوا خصوصاً في عهد يعقوب المنصور ما لم ينالوه في أيام أبيه وجده، ولكن من غير أن تعطى لهم سلطة الحل والعقد، أو سلطة القرار التي تمتع بها الفقهاء عند المرابطين.

بالأندلس والمغرب، وأجاز له من الإسكندرية الإمامان أبو الطاهر بن عوف وأبو سعيد ابن جاز⁽⁶⁶⁾.

وأنشأ الموحدون مدرسة الحفاظ المشار إليها سابقاً، وعدداً من المدارس بفاس وسبته وغيرها من الحواضر والبوادي، وألزموا الطلبة حفظ موطأ المهدي وبعض كتب السنة. وقد

أمر يعقوب المنصور جماعة ممن كان عنده من العلماء المحدثين بجمع أحاديث من المصنفات العشرة وهي: الصحيحان، وجامع الترمذي، والموطأ، وسنن أبي داود، وسنن النسائي، وسنن البزار، ومسند ابن أبي شعبة، وسنن الدارقطني، وسنن البيهقي.

وكان يعقوب المنصور يأمر أيضاً بقراءة سنن أبي داود، فهو عنده العمدية في معرفة أحكام السنة النبوية.

ولا يخفى ما لابن حزم من تأثير في هذا المجال، فقد عدد مصادر السنة النبوية، وذكر ضمن ذلك الكتب العشرة السابقة الذكر.

وغدا المحدثون الطبقة المفضلة عند الموحدين، فإليهم كانت تصرف العناية الكبيرة وعليهم تغدق الأموال ونالوا خصوصاً في عهد يعقوب المنصور ما لم ينالوه في أيام أبيه وجده⁽⁶⁷⁾، ولكن من غير أن تعطى لهم سلطة الحل

كتب الفروع:

عمد الموحدون - وهو يدعون الناس إلى العكوف على الكتاب والسنة - وإلى منع الفقهاء وطلبة العلم من النظر في كتب الفروع وخاصة كتب المذهب المالكي، بل إنهم أمروا بإحراق كتب المالكية، جاء في كتاب "القرطاس"، وفي "الاستقصاء"⁽⁷⁶⁾، أن عبد المؤمن أمر سنة 555هـ بتحريق كتب الفروع ورد الناس إلى قراءة الحديث، وكتب بذلك إلى طلبة المغرب والأندلس والعدوة.

يرى الأستاذ سعيد أعراب: أن عبد المؤمن كان أول من حارب كتب الفروع المالكية وشدد على الفقهاء في ذلك، وأنه كان يرمي من وراء ذلك إلى حمل الناس على مذهب ابن حزم الظاهري، والدليل على ذلك أن المسألة التي تدرج بها للطعن في مذهب مالك هي من صميم فقه ابن حزم، وقد أوردها في كتابه المحلى وبالغ في الرد على مالك، فعبد المؤمن هنا كان يتكلم بلسان ابن حزم...⁽⁷⁷⁾.

بينما يرى الأستاذ محمد المنوني أن الفكرة متأصلة من ابن تومرت، وأن النص السابق لا يفيد إلا أن عبد المؤمن، أمر بما ذكر ليس إلا، ولم يذكر أن الأمر نفذ لأن التنفيذ غير واقع، ولو وقع لكان جديرا بالتصريح به والتنصيص عليه⁽⁷⁸⁾، ويرى أيضا أنه لم يدخل إلى حيز التنفيذ إلى على عهد يعقوب المنصور، واستنادا إلى عدد من المؤرخين في مقدمتهم عبد الواحد المراكشي، الذي كان معاصرا للدولة الموحدية

والعقد، أو سلطة القرار التي تمتع بها الفقهاء عند المرابطين.

استقدم الموحدون محدثين من الأندلس، وأسندوا إليهم وظيفة تدريس الحديث وبعض علومه في المدارس التي أنشأوها بالمغرب، وعقدوا لهم مجالس للمناظرات مع غيرهم من العلماء، جاء في كتاب "الإعلام" أنه في سنة 585هـ استدعى يعقوب المنصور العلماء ورواة الحديث من الأندلس، وأمرهم بتدريس حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم⁽⁶⁸⁾ من هؤلاء أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله الخثمي السهيلي المالقي (581هـ)⁽⁶⁹⁾، وابن الفخار أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الأنصاري المالقي (590هـ)⁽⁷⁰⁾، وأبو محمد عبد الله بن محمد الحجري المري (591هـ)⁽⁷¹⁾، وأبو الحسن نجبة بن يحيى الرعيني الإشبيلي (579هـ)⁽⁷²⁾، وأبو الوليد ابن رشد الحفيد (595هـ)⁽⁷³⁾، وأبو جعفر أحمد بن عتيق البلسني (607هـ)⁽⁷⁴⁾، وأبو عبد الله محمد بن أحمد اللخمي التلمساني المعروف بابن الحجام (614هـ)⁽⁷⁵⁾.

فازدهرت الدراسات الحديثية بالمغرب بفضل هذه العناية الكبيرة، ونبغ علماء كبار منهم أبو الخطاب بن دحية السبتي، وابن القطان الفاسي، وأبو إسحاق المرادي الفاسي، وأبو عبد الله محمد بن يحيى بن صاف المعروف بالمواف المراكشي، وغيرهم ممن سأذكرهم لاحقا. حمل الناس على المذهب الظاهري ومحاربة

السادسة للهجرة، لأنه أحيى ما اندرس من العمل بالكتاب والسنة وأمر بمقتضاها⁽⁸¹⁾. وبذلك يحكم الأستاذ أعراب على دعوة الموحدين إلى العمل بالكتاب والسنة على أنها "كانت تجربة رائدة فريدة في تاريخ الإسلام بعد الخلفاء الراشدين"⁽⁸²⁾.

ويرى الأستاذ عبد اللطيف شرارة أن سبب ميل الموحدين إلى الفكر الظاهري الحزمي، راجع إلى أنهم بنوا دولتهم حسب المنهجية الحزمية، فقد اعتمدوا على تأصيل الفكر الاجتهادي اعتماداً على ظواهر النصوص الشرعية ونبد التقليد. يقول: "إن المذهب الظاهري الحزمي عرف فعلاً شيئاً من الازدهار في عهد الموحدين، وبرزت معالمه عند منظري هذه الدولة وساستها بشيء من الوضوح، والدليل في ذلك يكمن في تأثير الفكر التومرتي- الذي سار عليه ملوك الموحدين في بناء دولتهم بالمنهجية الحزمية التي أسست على تأصيل الفكر الاجتهادي اعتماداً على النصوص الشرعية: القرآن والسنة والإجماع، ثم نبد التقليد والقياس وترك الفروع"⁽⁸³⁾.

ويربط الدكتور عباس الجراري بين محاربة الموحدين لكتب الفروع وبين محاربة خصومهم المرابطين فيقول: "لم يلجأوا إلى محاربة فقهاء الدولة المرابطية وكتبها إلا وسيلة لنسف حكمها وتقويض دعائمها الفقهية القائمة على الفروع..."⁽⁸⁴⁾.

ومطلعاً على أخبارها، وهو الذي قال وهو يتحدث عن المنصور: "وفي أيامه انقطع علم الفروع وخافه الفقهاء، وأمر بإحراق كتب المذهب بعد أن مجرد ما فيها من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم والقرآن، ففعل ذلك، فأحرق منها جملة في سائر البلاد، كمدونة سحنون، وكتاب ابن يونس، ونوادر ابن أبي زيد، ومختصره.. وما جانس هذه الكتب ونحا نحوها، لقد شهدت منه -وأنا يومئذ بمدينة فاس- يؤتى منها بالأحمال فتوضع ويطلق فيها النار"⁽⁷⁹⁾.

لقد كان عصر المنصور -كما يقول صاحب "القرطاس"- عصر "محو مذهب مالك وإزالته من المغرب مرة واحدة وحمل الناس على الظاهر من القرآن والسنة"⁽⁸⁰⁾.

ويعلق الأستاذ سعيد أعراب على هذا فيقول: "لقد كان حريصاً على العمل بالكتاب والسنة لا يقلد أي مذهب من المذاهب، وأن الفقهاء في عهده كانوا لا يفتون إلا بالكتاب والسنة ولا يقلدون أحداً من الأئمة المجتهدين، ويؤكد ما ذهب إليه بما أجاب به المنصور ابن المواق حينما أطلعه على ما في كتب ابن حزم من عوار وطوام "أعوذ بالله أن أحمل أمة محمد صلى الله عليه وسلم على هذا..."، ويذهب الأستاذ سعيد أعراب إلى أبعد من ذلك حينما يجعل الخليفة يعقوب المنصور بفضل تكوينه الشرعي وعمله بالكتاب والسنة- "من أئمة الاجتهاد، وأحد المجتهدين على رأس المائة

4 - أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد المرادي الفاسي المعروف بابن الكهاد (663هـ).

ونبغ محدثون آخرون لم يتأثروا جليا بالظاهرية كالعلامة الكبير القاضي عياض ابن موسى اليحصبي السبتي (544هـ).

وكالإمام الحافظ الكبير أبي محمد عبد الحق الإشبيلي المعروف بابن الخراط، صاحب كتاب الأحكام الكبرى والصغرى.

ومنهم أيضا أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن طاهر الحسيني الشريف المعروف بأبي عبد الله ابن صقيل⁽⁸⁸⁾، كان راوية للحديث حافظا لمتونه بصيرا بعلمه عارفا برجاله، على طبقاتهم وتواريخهم... استدرك على الأحكام الكبرى لعبد الحق أحاديث كثيرة في أكثر الكتب رأى أن أبا محمد أغفلها وأنها أولى بالذكر مما أورده. توفي بإشبيلية سنة (608هـ) وقد قدم الأندلس غازيا مع النصر من بني عبد المؤمن⁽⁸⁹⁾.

والحافظ الناقد الكبير علي بن محمد بن عبد الملك الحميري الكتامي، الشهير بابن القطان الفاسي، ولد سنة 562هـ، وأخذ عن أبي بكر بن المواق وأبي ذر الخشني وأبي عبد الله ابن الفخار وابن خروف...

قال ابن عبد الملك: "كان معظما عند الخاصة والعامة من آل دولة عبد المؤمن حظي كثيرا عند المنصور، فابنه الناصر فالمستنصر بن الناصر، فأبي محمد عبد الواحد أخي المنصور ثم أبي زكريا المعتصم بن الناصر، حتى كان

مظاهر التأثير بالمنهج الحزبي في عهد الموحدين:

استجاب عدد من العلماء -خوفا أو اقتناعا- لدعوة الموحدين إلى الاحتكام إلى القرآن والسنة ونبذ التقليد المذهبي، وكان الأثر واضحا، فقد شاع الاعتناء بالأصليين حفظا ودراسة بالشرح والتحليل، ونشأت محاولات جادة للتأصيل الفقهي، باستنباط الأحكام استنباطا مباشرا من نصوصها، وحدثت محاولات فكرية فقهية على هذا الأساس، نشط فيها النقد بين أنصار المذهب المالكي، وأنصار التيار الظاهري الحزبي الذين تنامي عددهم، أذكر بعضهم على سبيل المثال لا الحصر، فقد مر ذكر طائفة منهم:

1 - أبو الحسن علي بن محمد بن خيار البلنسي الأصل الفاسي (605هـ)⁽⁸⁵⁾ كان أحفظ أهل زمانه لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وأذكرهم للتاريخ والرجال والجرح والتعديل، يقوم على الكتب الستة قياما حسنا، ويتكلم على أسانيدھا ومتونها... وكان أميل إلى الظاهر.

2 - أبو الخطاب بن دحية الكلبي الداني الأصل السبتي (633هـ) كان من كبار المحدثين والحفاظ المتقين، أذعن له علماء الحديث بمصر وعرفوا جودة حفظه حين امتحنوه⁽⁸⁶⁾.

3 - أخوه أبو عمرو بن دحية كان معتقفا كأخيه أبي الخطاب المذهب الظاهري⁽⁸⁷⁾.

التأليف في أحاديث الأحكام، فكان كتاب "الأحكام الكبرى" لعبد الحق الإشبيلي السابق ذكره أشهر مصنف في هذا المجال⁽⁹³⁾.

وقد أثار هذا الكتاب حركة تأليف واسعة، فقد استدرِك عليه القاضي أبو عبد الله ابن الصقيل (608هـ) أحاديث كثيرة، وألف الإمام أبو الحسن بن القطان كتابه الشهير ببيان الوهم والإيهام الواقعين في كتاب الأحكام⁽⁹⁴⁾.

وتعقب ابن القطان تلميذه أبو عبد الله محمد بن صاف المعروف بالمواق في كتاب حافل دل على علمه وبصره بالصناعة الحديثية⁽⁹⁵⁾.

وشرح الإمام المزدغي الفاسي كتاب الأحكام لعبد الحق، وسمى شرحه "أنوار الأفهام في شرح الأحكام".

كتب الفهارس والمشيخات والبرامج في عهد الموحدين:

وإن الاهتمام بالحديث حفظاً ورواية وشرحاً يتطلب اهتماماً برجاله الذين ينقلونه ومنهم الشيوخ الذين يؤخذ عنهم الحديث في حلقات الدرس، أو يجيزون طلبتهم بعض كتب السنة أو غيرها، فقد كثر في هذه الفترة التأليف في المشيخات والبرامج والفهارس، وهي المعاجم التي تجمع فيها أسماء الشيوخ مرتبة في الغالب حسب حروف المعجم مع ذكر المرويات عنهم، وفيما يلي بعض منها:

* برنامج أبي القاسم عبد الرحمن بن عيسى الأزدي الفاسي الشهير بابن الملجوم الفاسي

رئيس الطلبة مصروفة إليه الخطط النبوية مرجوعاً إليه في الفتاوى. وكان قد سعد عند المنصور منهم كثيراً، فكان المنصور يؤثره على غيره من أهل قرطبة، وجرت له أخبار طريفة معه مع أنه عينه لقراءة الحديث الذي كان يقرأ بين يديه⁽⁹⁰⁾.

وابن القطان هو صاحب الكتاب الشهير "بيان الوهم والإيهام الواقعين في كتاب الأحكام" لعبد الحق. توفي ابن القطان سنة (628هـ).

ومنهم أيضاً الحافظ أبو عبد الله محمد بن أبي يحيى بن خلف بن صاف الأنصاري المراكشي، المشهور بأبي عبد الله بن المواق. روى عن ابن القطان ولازمه واختص به، وكان فقيهاً حافظاً محدثاً مقيداً ضابطاً متقناً، ناقداً محققاً ذاكراً أسماء الرجال وتواريخهم وأحوالهم، وله تعقب على كتاب "بيان الوهم والإيهام" لشيخه أبي الحسن بن القطان، ظهر فيه إدراكه ونبله ومعرفته بصناعة الحديث واستقلاله بعلومه، وإشرافه على علله وأطرافه وتيقظه وبراعة نقده واستدراكه⁽⁹¹⁾.

ولأبي عبد الله كتاب شيوخ الدارقطني، وشرح مقدمة مسلم وشرح للموطأ في غاية النبل وحسن الوضع، ومقالات أخرى كثيرة في أغراض شتى حديثية وفقهية وتنبيهات مفيدة⁽⁹²⁾.

ازدهار التأليف في كتب الأحكام:

إن من مظاهر التأثير بدعوة الموحدين للعكوف على الكتاب والسنة لا إلى شيء سواهما،

* فهرسة الشلوين أبي علي عمر بن محمد الأزدي الإشبيلي، الإمام العالم النحوي أسند من في وقته، وفي العربية بحر لا يجارى، سمع أبا بكر بن الجدد، وابن زرقون، وابن خروف، والسهيلي، وابن بشكوال، وجماعة، وأجاز له السلفي وابن خير. وعنه أخذ الأعلام كابن عصفور، وابن مالك، وابن الأبار. له في النحو والعربية أكثر من كتاب، وله أيضا فهرسة، جمع فيها أساء شيوخه⁽¹⁰¹⁾.

* برنامج أبي عمر بن عات، وهو أحمد بن هارون بن أحمد النفري الشاطبي له رحلة إلى المشرق لقي فيها أبا طاهر السلفي، وأجاز له ابن الجوزي وغيره. وقد ضمن ذكر أشياخه وجملة من مروياته برنامجيه، الذي سمى أحدهما "النزهة في التعريف بشيوخ الوجهة". وهو كتاب حافل جامع، والآخر ب: "ريحانة التنفس في ذكر شيوخ الأندلس"⁽¹⁰²⁾.

* برنامج أبي العباس أحمد بن يوسف السلمي المعروف بابن فرتوت الفاسي (660هـ)، كان فقيها محدثا مؤرخا⁽¹⁰³⁾. روى عن أبي ذر الحشني، وابن ملجوم الفاسي. وعنه أخذ ابن الزبير⁽¹⁰⁴⁾.

مآل محاولات الموحدين حمل الناس على المذهب الظاهري الحزمي:

لقد انتهت محاولات الموحدين حمل الناس على المذهب الحزمي بانتهاء دولتهم، ولم يكتب لها الاستمرار، بل إن المذهب الذي استمر سائدا هو المذهب المالكي، الذي حاربه الموحدون وأحرقوا كتبه، وأوقعوا المحن بفقهاءه، وضربوا

(603هـ)، عالم جليل وفقه محدث حافظ، لقي القاضي عياضا، وابن الجدد، وابن رشد، وابن بشكوال، والسهيلي، وابن الفخار، وأبا بكر بن خير...⁽⁹⁶⁾.

* برنامج أبي عبد الله محمد بن قاسم التميمي الفاسي (603هـ)، وهو من الفقهاء المحدثين. رحل إلى المشرق ولقي نحو مائة شيخ، منهم أبو طاهر السلفي، وأبو القاسم البوصيري، وغيرهم ممن ضمن ذكرهم برنامجا حافلا سماه "النجوم في ذكر من أخذنا عنه من كل ثبت وثقة" قال ابن عبد الملك: "واختصر منه مجلدا لطيفا وقفت عليه بخطه"⁽⁹⁷⁾.

* فهرسة أبي الصبر السبتي وهو أيوب بن عبد الله الفهري السبتي الإمام الزاهد المحدث الشاعر أخذ عن ابن بشكوال كثيرا، والسهيلي وابن قرقول وغيرهم من أئمة المشرق والمغرب. استشهد في كائنة العقاب سنة (609هـ)⁽⁹⁸⁾.

* برنامج ابن القطان الفاسي المار ذكره. قال ابن عبد الملك المراكشي وهو يعدد مؤلفاته وبرنامج شيوخه وعمله بأخرة، بعد الخمسين وستائة⁽⁹⁹⁾.

* برنامج أبي العباس أحمد بن القاضي أبي عبد الله محمد بن أحمد اللخمي العزفي السبتي (633هـ)⁽¹⁰⁰⁾.

* فهرسة أبي الحسن علي بن محمد الغافقي السبتي يعرف بالشاري، إمام فقيه محدث، أخذ عن ابن جبير، وأبي الحشني، وأجازة جماعة كابن حبيش، والسهيلي، وعبد المنعم ابن الفرّس، وابن مضاء. توفي عام (649هـ).

العقود". توفي عام 585هـ.

- أبو الحسن علي بن سعيد الرجراجي، ألف "مناهج التحصيل فيما للأئمة على المدونة من التأويل"⁽¹⁰⁹⁾.

- عبد الله بن محمد التادلي كان حيا سنة 623هـ، كتبت المدونة من حفظه⁽¹¹⁰⁾.

- أبو الحسن علي بن أحمد التجيبي المعروف بالحرالي المراكشي (637هـ) من أعلم الناس بمذهب مالك، وأقرأ التهذيب للبرادعي وأبدى فيه الغرائب⁽¹¹¹⁾.

وألف آخرون في الرد على ابن حزم ويان أوهامه في الفقه وأصوله والحديث ورجاله في هذه الفترة الذي اتخذه الموحدون قدوه لهم وإماما، منهم:

أبو الحسن محمد بن سعيد الأنصاري الإشبيلي المعروف بابن زرقون كأبيه، العالم الفقيه الحافظ⁽¹¹²⁾، كان شديد التمسك بالمذهب المالكي قائما عليه، قل ابن فرحون: شيخ المالكية وكان من كبار المتعصبين للمذهب، فأوذى من جهة بني عبد المؤمن...⁽¹¹³⁾، وألف في الرد على ابن حزم كتاب "المعلّى في الرد على المحلى والمجلى" وكلاهما لابن حزم، وألف أيضا كتاب "تهذيب المسالك في تحصيل مذهب مالك" لم يكمله، وكان أبوه عبد الله رأس فقهاء وقته، وهو الذي رد على الخليفة عبد المؤمن ووزيره أبي جعفر بن عطية⁽¹¹⁴⁾.

أبو يحيى بن المواق (599هـ) جمع من كتب

بعضهم بالسياط، وألزمهم الأيمان المغلظة من عتق وطلاق وغيرها على أن لا يتمسكوا بشيء من كتب الفقه⁽¹⁰⁵⁾.

لقد خرج المذهب المالكي من هذه المحنة شامخا قويا، فقد أعيد نسخ كتبه المحروقة من صدور من يحفظها عن ظهر قلب، ونشط العلماء في تدريسه بشكل لا يقل كثرة واتساعا عما كان عليه من قبل، يؤكد هذا الشيخ عبد الله كنون قائلا: "والذي نريد أن نسجله هنا هو أن المذهب المالكي لم ينهزم مطلقا، أمام الدعوة إلى الاجتهاد التي كان الموحدون يتزعمونها، ولا أمام المذهب الظاهري الذي نشط نشاطا كبيرا في هذا العصر، وذلك برغم الحملة المنظمة من رجال الدولة للقضاء عليه..."⁽¹⁰⁶⁾.

فقد بقي طائفة من الفقهاء متمسكين بالمذهب المالكي، منافحين عنه مبينين حجته وأفضليته، وكاشفين أحيانا عوار المذهب الحزمي وطوامه، منهم: أبو محمد يشكر بن موسى الجورائي الفاسي (598هـ)، له حواشي على المدونة⁽¹⁰⁷⁾.

- عبد الرحيم بن عمر اليزناسني، عاش في أواخر القرن السادس، إمام في فقه مالك حصل له⁽¹⁰⁸⁾.

- أبو القاسم الجزيري علي بن يحيى الصنهاجي، نزل الجزيرة الخضراء وولي قضاءها فنسب إليها. كان فقيها متمكنا. اشتغل بالتدريس وعقد الشروط. وله في الشروط مختصر مفيد مشهور، سماه "المقصد المحمود في تلخيص

ولا يمكن مع ذلك إغفال الأسباب التي كانت وراء فشل ابن حزم نفسه في نشر توجهه الظاهري فيما يتعلق بأصول الفقه وفقه الحديث، كمنعه التقليد مطلقاً بغض النظر عن المقلد والمقلد، فليس لأحد -في رأيه- أن يقلد أحداً، وعد ذلك حراماً، فهو القائل: "التقليد حرام، ولا يحل لأحد أن يأخذ بقول أحد من غير برهان"⁽¹¹⁷⁾.

فهذا كما يقول الإمام أبو زهرة قيم بالنسبة لمن عنده آلة الاجتهاد، أو للرجل الذي يستطيع أن يزن الأدلة، فلا يقبل أي كلام أي إلا بدليله⁽¹¹⁸⁾...، ولكن ابن حزم يمنع العامي من التقليد أيضاً، وسوى بينه وبين العالم المجتهد فيقول: "والعامي والعالم في ذلك سواء وعلى كل حظه الذي يقدر عليه من الاجتهاد"⁽¹¹⁹⁾.

ولا شك أن هذا أمر أخطر من التقليد المذهبي، إذ سيتناول على الكتاب والسنة كل من هب ودب، واستنباط الأحكام من الأصلين كما هو معروف، لا يتأهل له إلا من تمكن من أدوات الاجتهاد.

يقول الشيخ محمد الغزالي: "وأنا أكره التعصب المذهبي وأراه قصور فقه، وقد يكون سوء خلق، لكن التقليد المذهبي أقل ضرراً من الاجتهاد الصبياني في فهم الأدلة"⁽¹²⁰⁾.

وأما منعه تقليد الصحابة وفقهاء السلف بحجة عدم معرفتهم بكل السنن، أو تقديمهم الآراء على النصوص أحياناً فمبالغة

ابن حزم مسائل كثيرة انتقدت عليه⁽¹¹⁵⁾.

أبو محمد صالح بن جنون الهكسوري الفاسي، فقيه فاس وصالحها، عرف بالصلاح والنزاهة والعلم. درس "الرسالة" لابن أبي زيد، وله تقييد عليها كتب من إملائه. توفي في عام 653هـ.

أبو الحجاج يوسف بن عمران المزدغي، أحد الفقهاء الأعلام. كان عالماً بالنحو واللغة والبديع والتاريخ والأدب. أقرأ الحديث والتفسير مدة.

ولاشك أن أسباب فشل الموحدين في اختيارهم كثيرة، يقول الدكتور عبد المجيد النجار: "ولكن هذا التوجه التأصيلي في الفكر الشرعي لما يتجاوز طور المحاولة إلى طور النضج، بل سرعان ما انكفأ على أعقاب، ليسود من جديد المنهج الفروعى القائم على التقليد، والمعتمد على آراء الفقهاء السابقين عوض الاستناد على النصوص. ولعل من أهم الأسباب في هذا الانكفاء قوة التيار العام في الفكر الشرعي الإسلامي المتراجع إلى التقليد والمنتكب عن الاجتهاد الذي لا يتم إلا بمباشرة النصوص، ومن أسباب ذلك أيضاً أن منهج التأصيل قامت به الدولة الموحدية بعد المهدي على مستوى القرار السياسي، الذي ألزم به الناس أحياناً بطريق الجبر، دون أن يكون مسنوداً بحركة علمية تنظر له بمنطق الحجة العلمية وتضع الأنموذج التطبيقي، على غرار ما قام به المهدي نفسه في مؤلفاته الفقهية والأصولية"⁽¹¹⁶⁾.

إلا إذا محصت أفكاره الإيجابية عما يشوبها من انحرافات في الأقوال والأحكام...

يمكن أيضا أن نذكر من بين أسباب تمسك المغاربة بالمذهب المالكي وعدم مسaire التوجه الذي فرضه الموحدون، ما لمسوه من نزعات شيعية في فكر مؤسس الدولة المهدي ابن تومرت.

والله تعالى أعلم، وهو الهادي إلى الصواب.

منه، فقد كان هؤلاء أحرص الناس على اتباع شرائع الإسلام وأحكامه، ومن المحال أن يتركوا حكما في الكتاب والسنة عمدا، وقد صح عن غير واحد من الأئمة الفقهاء قوله: "إذا صح الحديث فهو مذهبي، واضربوا بقولي عرض الحائط".

ومن المحال أن يجهلوا الأحكام أو أدلتها، فقد تغيب عنهم الأحاديث اليسيرة لما كانوا عليه من الحرص على الدين والطلب.

* وقوعه في أغلاط كثيرة وأوهام متعددة، كرده لكثير من الأحاديث التي لا توافق ما يذهب إليه.

* جراته على تغليب من سبقه فقد نال من الأئمة الكبار مالك وأبي حنيفة والشافعي وغيرهم وكثيرا ما يصفهم بالتجهيل والبعد عن الحق وتنكبه.

* استهدافه إلى فقهاء وقته ونقده إياهم النقد اللاذع⁽¹²¹⁾، مما جعلهم يتماؤنون على بغضه ومحاربه ورد قوله، ويجمعون على تضليله وتحذير سلاطينهم من فتنته، ونهي عوامهم عن الدنو منه والأخذ عنه.

هذه هي أهم أسباب فشل ابن حزم في مقارعة المذهب المالكي، وعدم ثبات مذهبه الظاهري، وهي نفسها الأسباب الكامنة وراء فشل دعوة الموحدين إلى المنهج الحزمي في العكوف على الكتاب والسنة، ونبد التقليد المذهبي، إنها أسباب حملها معه وتضمنتها كتبه التي تنظر له، ولا يمكن أن تفيد منه الأجيال المتعاقبة،

الهوامش

1. انظر أخباره مفصلة في الكامل في التاريخ 8 / 24 وما بعدها، والحلة السيرة لابن الأبار 1 / 158 ووفيات الأعيان 3 / 117-19، وسير أعلام النبلاء للذهبي 15/141 وما بعدها، والعبر له 2 / 193، والبداية والنهاية لابن كثير 11 / 179، وتاريخ ابن خلدون 3 / 31-40.
2. الفهرست لابن النديم ص 268، وسير أعلام النبلاء 15 / 144-149.
3. أنظر الترجمة في الحلة السيرة 1 / 194-195، ووفيات الأعيان 2 / 292-293، والوفاء بالوفيات 12 / 327-329.
4. معالم الإيمان للدباغ 3 / 41.
5. ترتيب المدارك 4 / 419.
6. معالم الإيمان 2 / 200 وأنظر أيضا ترتيب المدارك 3 / 318 في وصف معاناة القيروانيين بسبب الاضطهاد العبيدي.
7. البيان المغرب 1 / 277.
8. هو مخلد بن كيداد بن سعد الله بن مغيث، أصله من زناته من نواحي الأندلس، ثار على العبيدين بالقيروان وغيرها فسانده فقهاء المالكية وشاركوا في ثورته. وإن كان من مذهبه تكفير أهل الملة واستباحة الأموال والدماء والخروج على السلطان. اندحر في آخر الأمر أمام العبيدين بعد أن غدر بالفقهاء

28. دخل العرب إلى الأندلس في مجموعة كبرى أولها في عهد موسى بن نصير سنة 93هـ ضمت نحو اثني عشر ألف معظمهم من القيسية واليمينية وموالي بني أمية. وثانيها مجموعة الحر بن عبد الرحمن القيسي سنة 97هـ. وأما الثالثة فمجموعة بلج بن بشر القيسي قارب عددها عشرة آلاف غالبيتهم أيضا وعرفوا بالشاميين.
29. وهم عجم أو النصارى ونصارى أهل الذمة الذين اختلطوا بالمسلمين ودخلوا في الإسلام.
30. وهم أسرى الحروب أو القرصنة البحرية، كانوا يتخذون حراسا شخصيين لبعض الأمراء والملوك. وهم الذين ثاروا إلى جانب البربر بعد موت الحاجب المنصور سنة 393هـ كما سيأتي قريبا.
31. مؤسس دولة العامرين هو الحاجب المنصور بن أبي عامر. كان وزيرا وحاجبا للخليفة الصغير هشام المؤيد ابن الحكم ولي الأمور وهو ابن تسع سنين (نفخ الطيب 1/ 396)، أبلى البلاء الحسن في حروبه ضد النصارى والمعارضين فقويت الدولة وهابها الجميع حتى قيل فيه: حتى كأنك بالعيان تراه
آثاره تنبيك عن أخباره أبدا ولا يحمي الثغور سواه
والله ما يأتني الزمان بمثلته
كان له في كل غزوة مفخرة، ولم تنهزم له قط راية مع كثرة غزواته شاتية وصائفة (نفخ الطيب 1/ 595-596). سيطر على القصر، واستبد بهشام، واستقل بالملك. وجرى بعده ابنه عبد الملك المظفر على سننه في السياسة والغزو، ثم أخوه عبد الرحمن الملقب بالناصر لدين الله الذي طلب من الخليفة هشام أن يوليئه عهده فأجابته، فهاج الأمويون والعرب وخلعوا هشاما وبايعوا المهدي، وثار البربر وقتلوا عبد الرحمن وكان ذلك سبب قيام الفتنة.
32. العبر لابن خلدون 17/ 324-329.
33. هو عبد الله بن يوسف أبو الوليد بن الفرضي فقيه محدث، تولى قضاء بلنسية، من مؤلفاته تاريخ علماء الأندلس، والمؤتلف والمختلف، وكتاب أخبار الشعراء. أنظر ترجمته في بغية الملتبس 334 وتفتح

- وعرضهم للقتل انتصارا لنزعتهم الخارجية.
9. البيان المغرب 1/ 317.
10. الرياض 2/ 141.
11. سير أعلام النبلاء 15/ 155/ 156.
12. معالم الإيمان.
13. ترتيب المدارك 2/ 248.
14. المصدر نفسه.
15. أي يحملهم على مذهب المشاركة وهو التشيع.
16. أنظر ذلك بتفصيل في معالم الإيمان 3/ 93، وترتيب المدارك 6/ 252 وما بعدها.
17. ترتيب المدارك 6/ 257-258.
18. معلم الإيمان 3/ 26 وسير أعلام النبلاء 15/ 360.
19. شجرة النور الزكية ص 96.
20. هو الإمام الكبير محمد بن عبد الله بن صالح الأبهري البغدادي (ت 375هـ) جمع بين الفقه والقراءات وعلو الإسناد، وانتهت إليه الرئاسة في مذهب مالك وعنه انتشر في البلاد. أخذ عنه خلق من الناس من أقطار الأرض من العراق وخراسان ومصر وإفريقية. له كتب كثيرة في شرح مذهب مالك والاحتجاج له والرد على من خالفه كشرح المختصر الصغير والكبير، وكتاب الرد على المزني، وكتاب الأصول، وكتاب إجماع أهل المدينة. أنظر ترجمته بتفصيل في الفهرست لابن النديم 1/ 698 وطبقات الشيرازي 167 وتاريخ بغداد 5/ 46 وترتيب المدارك 6/ 183 والنجوم الزاهرة 4/ 147.
21. معالم الإيمان 3/ 29.
22. ألف ابن أبي زيد الرسالة في السنة 327هـ، وسنه سبع عشرة سنة، وكانت ثورة أبي زيد بن كيداد بعيد ذلك بقليل بحيث كان أوجها سنة 332هـ. وشارك فيها ابن أبي زيد كما بينا أعلاه إلى جانب الفقهاء المالكية بالقيروان وعمره ثلاث وعشرين سنة.
23. ترتيب المدارك 6/ 218، والديباج المذهب 2/ 429.
24. المصدر نفسه 6/ 217.
25. المصدر نفسه، 6/ 215-216.
26. طبقات الفقهاء ص 160، وانظر الديباج المذهب 2/ 428.
27. ترتيب المدارك 6/ 218، والديباج المذهب 2/ 430.

49. هكذا في الأصل، ولعل الصواب دواوين.
50. الكافي 1/ 9-10.
51. كان أسلوب ابن حزم حادا وعباراته لاذعة، حتى ذكر عن ابن العريف قوله "كان لسان ابن حزم وسيف الحجاج شقيقين".
52. أعجب بابن حزم كثيرون وتأثروا بأرائه ومنهجه منهم بعض الأعلام الكبار:
- ابنه أبو رافع، وكان في خدمة المعتمد بن عباد وهو الذي نشر آراء أبيه بالمشرق.
- أبو عبد الله الحميدي الحافظ (488هـ) صاحب الجمع بين الصحيحين وجذوة المقتبس. له رحلة إلى المشرق أخذ فيها عن الخطيب، والأمير أبي نصر بن ماكولا. وهو الذي أدخل كتب ابن حزم إلى المشرق واليه يعود الفضل في نشر مذهبه أيضا.
- القاضي أبو القاسم صاعدا بن أحمد التغلبي الأندلسي (462هـ)
- سالم بن أحمد بن فتح القرطبي (461هـ).
- ومن تأثر به بعد عصره:
- الحافظ أبو الخطاب عمر بن الحسن المشهور بابن دحية الكلبي السبتي (633هـ) صاحب المؤلفات المشهورة كالمطرب من أشعار أهل المغرب، والآيات البينات في ذكر ما في أعضاء رسول الله من المعجزات، ووهج الجمر في تحريم الخمر، والابتهاج في أحاديث المعراج، وأداء ما وجب من بيان وضع الوضاعين في رجب، والتنوير في مولد السراج المنير.
- أحمد بن محمد بن مفرج أبو العباس بن الرومية الحافظ (637هـ). قال ابن الأبار: "كان ظاهريا متعصبا لابن حزم بعد أن كان مالكيا، وكان بصيرا بالحديث ورجاله..." التكملة 1/ 121-122.
53. ترتيب المدارك 8/ 122.
54. الفكر السامي 4/ 52.
55. ترتيب المدارك 8/ 119.
- والباجي هو أبو الوليد سليمان بن خلف التميمي الأندلسي. أصله من بطليوس. انتقل إلى باجة، وبها نشأ وأخذ علومه الأولى عن شيوخها وشيوخ المراكز الأندلسية العلمية الأخرى. ثم رحل إلى الحجاز والشام والعراق ومصر وأطال الرحلة، وطلب علوما كثيرة، وذكرت له كتب

- الطيب 2/ 329.
34. بغية الملتبس 334 ونفخ الطيب 2/ 329.
35. الصلة لابن بشكوال 1/ 248.
36. انظر ترجمته في جذوة المقتبس للحميدي 123، وبغية الملتبس لأحمد بن عميرة الضبي ص 489، وترتيب المدارك 8/ 87، والصلة لابن بشكوال 2/ 618، والديباج المذهب 2/ 367، وتذكرة الحفاظ 3/ 103.
37. المقصود بها على وجه الخصوص كتاب التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، وكتاب الاستنكار وكتاب الكافي في فقه أهل المدينة المالكي.
38. رسالة في فضل الأندلس وذكر رجالها ص 180 مطبوعة ضمن رسائل ابن حزم الجزء الثاني، تحقيق الدكتور إحسان عباس ط 1/ 1981.
39. الصلة لابن بشكوال 2/ 617-618.
40. تذكرة الحفاظ 3/ 1128.
41. هكذا في الأصل، والصحيح: كتابا.
42. جذوة المقتبس ص 345.
43. التمهيد الجزء السابع مقدمة التحقيق ص 6.
44. تنوير الحوالك 1/ 6 والرسالة المستطرفة ص 4-5-6.
45. هي التي وصل بعضها الحافظ ابن الصلاح في رسالته "وصل البلاغات الأربع"، حققها المرحوم أبو الفضل عبد الله بن الصديق، ونشرتها دار الطباعة الحديثة بالبيضاء عام 1455هـ الموافق 1979م. وقد شاع أن ابن الصلاح قد وصل تلك البلاغات كلها، والأمر ليس كذلك إنما وصل اثنين منها، ومن جهة المعنى فقط وأما الآخران فأحدهما من وجه لا يثبت، والآخر بعض معناه من وجه غير صحيح، انظر تفصيل ذلك في مقالنا "مراسيل الموطأ وبلاغاته بين ابن عبد البر وابن الصلاح" العدد الخامس من مجلة كلية الآداب بجامعة محمد الأول بوجدة ص 227.
46. انظر مثلاً ج 1 ص 268-272-273 والجزء 14 ص 236-238-246.
47. انظر ج 10-228.
48. ج 6/ 227-ج 92-93-100-101 ج 1/ 240-363-364. وانظر الامالي المطلقة لابن حجر ص 130.

67. واسطة العقدين: 188.
68. ج 1، ص 65.
69. التكملة: 1613.
70. المصدر نفسه: 836.
71. المصدر نفسه: 1416.
72. المصدر نفسه: 1276.
73. المصدر نفسه: 1853، والأعلام: 3/ 47.
74. بغية الملتمس: 145.
75. الإعلام: 3/ 87.
76. القرطاس: 2 / 154 والاستقصا 2/ 112.
77. دعوة الحق، العدد 239، سنة 1970، مقال: موقف الموحدين من كتب الفروع وحمل الناس على المذهب الحزمي، ص 28-29.
78. العلوم والآداب والفنون للأستاذ المنوني، ص 51-52.
79. المعجب: 184.
80. ص 138.
81. دعوة الحق، العدد 249، المقال نفسه، ص 29.
82. المرجع نفسه، ص 30.
83. ابن حزم رائد الفكر العلمي، ص 9.
84. كتاب الأمير الشاعر أبو الربيع الموحدي، ص 46.
85. التكملة: 1917، الذخيرة: 40-41.
86. نفح الطيب: 602/2.
87. وفيات الأعيان: 2/ 432، شذرات الذهب: 5/ 160.
88. ترجمته في الذيل والتكملة السفر الثامن: 1/ 308، والتكملة: 683. وقد نسب ب "الصقلي" في الأعلام لابن إبراهيم: 4/ 160. ونقله الشيخ المنوني في كتابه "العلوم والآداب والفنون"، ص 48.
89. الذيل والتكملة السفر الثامن: 1/ 308.
90. الذيل والتكملة السفر الثامن: 1/ 169، التكملة وجذوة الاقتباس رقم 517، ونفح الطيب 3/ 180.
91. المصدر نفسه: 1/ 272/ 273.
92. المصدر نفسه: 1/ 273.
93. انظر الرسالة المستطرفة لمحمد بن جعفر الكتاني، وقد طبع الكتاب محققا.
94. أنظر الدراسة القيمة التي أنجزها الدكتور إبراهيم بن الصديق تحت عنوان المدرسة المغربية في الجرح والتعديل وكتاب علم العلل بالمغرب من خلال

- التراجم أنه رحل رحلة ثانية أطول من الأولى دامت ثلاث عشرة سنة، يطلب العلم ويدرسه في آن واحد. وبعد عودته إلى الأندلس قصده الناس يطلبون منه العلوم المتنوعة من حديث وفقه وأصول، وشدهم إليه سعة اطلاعه وبراعته في فني الجدل والمناظرة. توفي الباجي سنة 474هـ (شرف الطالب في أسنى المطالب لابن قنفذ ص 57، ضمن كتاب ألف سنة من الوفيات في ثلاثة كتب، تحقيق محمد حجي). وانظر ترجمته مفصلة في بغية الملتمس ص 289، والصلة 1/ 197-199، وترتيب المدارك 8/ 117-127، والديباج المذهب 1/ 277، ووفيات الأعيان 2/ 142.
56. المنتقى مقدمة المؤلف ص 3.
57. احث من المغرب، وأستاذ الفكر والفلسفة بجامعة محمد الخامس بالرباط.
58. أنظر كتاب ابن حزم والفكر الفلسفي بالمغرب والأندلس ص 45 وما بعدها.
59. أي في عهد الدولة المرابطية التي اشتهر عنها رعايتها للفقهاء والفقهاء وتقريبهم وتعظيمهم بشكل واضح دفع المؤرخين إلى القول بان دولتهم كانت دولة الفقهاء لا تصدر شيئا إلى بمشورتهم، ولذلك ازدهر الفقه المالكي في عهد المرابطين لكن من غير أن ينقص ذلك من شأن العلوم الأخرى، ولا يحيط من قيمة العلماء غير الفقهاء.
60. انظر في هذا كتاب العلوم والآداب والفنون في عهد الموحدين للأستاذ محمد المنوني، وهو الكتاب المطبوع أيضا بعنوان "حضارة الموحدين"، وكتاب النهضة الحديثة في عهد يعقوب المنصور الموحدي للأستاذ عبد الهادي أحمد لحسيسن والنبوغ المغربي لعبد الله كنون.
61. انظر كتاب العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين، للأستاذ محمد المنوني، ص 44، 46، 47، وكتابه حضارة الموحدين، ص 16، 30، 33، 44.
62. نفح الطيب: 2/ 162.
63. انظر، ص 155 ونفح الطيب: 2/ 99.
64. الاستقصا 1/ 100، والقرطاس: 161.
65. المعجب: 207.
66. واسطه العقدين لمحمد بن احمد اليعحمدي: 327/ 1.

118. ابن حزم حياته وعصره، ص 305.
119. النبذ، ص 55.
120. السنة بين أهل الفقه وأهل الحديث، ص 10-11.
121. لم يسلم من ذلك بعض أقاربه، فقد كان لابن حزم ابن عم يقال له عبد الوهاب بن العلاء ابن سعيد ابن حزم، وكان بينهما منافسة ومخالفة، فوقف على شيء من كتب ابن حزم، فكتب إليه رسالة بليغة يعيب ذلك المؤلف، فكتب إليه الجواب فقال: وأطعت لقول الله تعالى: (وأعرض عن الجاهلين) وسلمت وانقدت لرسول الله صلى الله عليه وسلم: "صل من قطعك واعف عمن ظلمك" وأنشد بعدها أبياتا:
- ومالك فيهم يا ابن عمر ذاكر
كفساك ذكر الناس لي ولما ترى
ومالك فيهم من عدو تذاكر
ومالك فيهم من صديق فتشتني
وقولك منبث مع الريح طائر
وقسولي مسموع له ومصدق
الآيات أوردها ابن بسام في الذخيرة، ونقلها غير واحد
كابن حجر في الميزان، ج 4، ص 200-201.

المصادر والمراجع

1. الأحكام في أصول الأحكام، لابن حزم تقديم د. إحسان عباس ط/ 2 1983-1403، دار الآفاق الجديدة، بيروت.
2. الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، لابن العباس أحمد بن خالد الناصري، تحقيق جعفر الناصر واحمد النصر، طبعة دار الكتاب، الدار البيضاء 1954.
3. الأعلام ممن حل مراكز وأغمت من الأعلام، للقاضي العباس بن إبراهيم، المطبعة الملكية الرباط.
4. الأمير الشاعر أبو الربيع سليمان الموحدي، تأليف د. عباس الجراري ط 1/ 1974-1394، دار الثقافة البيضاء المغرب.
5. بغية الملتبس في تاريخ رجال الأندلس، لأحمد يحيى بن عميرة الضبي، ط/ كوديرا، مجرط 1984.
6. البيان المغرب، لابن عذاري المراكشي (712هـ)

- كتاب "بيان الوهم والإيهام". وقد طبعت هذه الدراسة ضمن منشورات وزارة الأوقاف. كما طبع كتاب بيان الوهم بتحقيق د. الحسين آيت سعيد. طبع بدار طيبة في ثلاثة أجزاء.
95. الذيل والتكملة: 1/ 272-273.
96. شجرة النور الزكية، ص 165، وبرنامج ابن الملجوم من مصادر ابن عبد الملك في الذيل والتكملة، السفر الثامن: 1/ 322.
97. الذيل والتكملة: 1/ 355، وشجرة النور، ص 184، وانظر أيضا كتاب العلوم والآداب والفنون، ص 66-68.
98. صلة الصلة: 201، والتكملة: 2380، وشجرة النور، ص 184.
99. الذيل والتكملة: 1/ 168.
100. انظر شجرة النور ففيه "التازي" عوض الشاري، وفهرس الفهارس: 2/ 251.
101. شجرة النور: 182.
102. التكملة: 10، والديباج المذهب: 59، ونفخ الطيب: 2/ 601.
103. في الذيل والتكملة: 1/ 306-311-325 (ابن فرتون) وكذا في شجرة النور، ص 200.
104. جذوة الاقتباس، ص 57، وشجرة النور، ص 200.
105. بيوتات فاس: 5.
106. النبوغ المغربي: 1/ 123-124.
107. الوفيات لابن قنفذ: 46.
108. عنوان الدراية: 135-154 / ونفخ الطيب: 1/ 411، وجذوة الاقتباس: 266-267.
109. نيل الابتهاج، ص 200.
110. نيل الابتهاج، ص 138.
111. عنوان الدراية: 85-86، ونفخ الطيب: 1/ 411.
112. شجرة النور، ص 178.
113. الديباج المذهب: 2/ 260.
114. انظر كتاب حضارة الموحدين، ص 41، ومجلة دعوة الحق العدد 249 المقال السابق، ص 62-67.
115. نفسه.
116. تجربة التغيير في حركة المهدي، ص 116.
117. النبذ في أصول الفقه، ص 54.

- 1937 .
23. طبقات الحفاظ، للسيوطي، تحقيق علي محمد عمر، ط 1 / 1393 - 1973 مكتبة وهبة، القاهرة، مصر.
24. الضوء اللمع في أعيان القرن التاسع، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت.
25. لسان الميزان، لابن حجر العسقلاني، ط 2 / 1971 - 1390، مؤسسة الأعلمي بيروت، مصورة عن مطبعة دائرة المعارف النظامية بالهند.
26. العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين، للأستاذ محمد المنوني، ط 1977/2 - 1397، دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط.
27. روض القرطاس، لابن أبي زرع (726هـ)، طبعة الحاج أحمد بن الحاد الطيب الأزرق، المغرب.
28. المعجب في تلخيص أخبار المغرب، لعبد الواحد بن علي المراكشي (674هـ)، تحقيق محمد سعيد العريان، ط. المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية القاهرة 1963م.
29. النبوغ المغربي، للأستاذ عبد الله كنون، دار الكتاب اللبناني 1961.
30. النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة، لابن تغري بردي (874هـ)، طبعة دار الكتب المصرية، ط 1 / 1932.
31. نفح الطيب، لأبي العباس أحمد بن محمد المقرئ، تحقيق د. إحسان عباس دار صادر، بيروت، لبنان.
32. الوافي بالوفيات، الصفدي، نشر جمعية المستشرقين الألمانية.
33. الوفيات، لابن قنفذ المسمى شرف الطالب في أسنى المطالب، تحقيق محمد حجي الرباط 1396 - 1976، مطبوعات دار المغرب.
34. وفيات الأعيان، لابن خلكان تحقيق، د. إحسان عباس دار صادر، بيروت.

- القسم 3، تحقيق هوسي ميراندا، ط دار كريات 1960.
7. تجربة التغيير في حركة المهدي بن تومرت د. عبد المجيد النجار ط 1 / تونس 1404 - 1986.
8. تذكرة الحفظ، للإمام شمس الدين الذهبي، دار التراث العربي - بيروت لبنان.
9. التكملة لابن الأبار، ط مصر (يحال عليها بأرقام الصفحات) وطبعة مجريط (ويحال عليها بأرقام التراجم).
10. جذوة الاقتباس، لابن القاضي (1205هـ)، طبعة المغرب الحجرية.
11. جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس، لمحمد بن فتوح الحميدي، تصحيح وتحقيق محمد بن تاووت الطنجي، تقديم الشيخ محمد زاهد الكوثري، مكتبة الحانجي، القاهرة.
12. حضارة الموحدين، للأستاذ محمد المنوني.
13. ابن حزم رائد الفكر العلمي، لعبد اللطيف شرارة.
14. ابن حزم حياته وعصره، للأستاذ محمد أبي زهرة.
15. الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، لابن فرحون المالكي، تحقيق الدكتور محمد الأحدي أبو النور، دار التراث، القاهرة.
16. الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، ط. دار المنصور الرباط 1972.
17. الذيل والتكملة لابن عبد الملك السفر الثامن، تحقيق د. محمد بنشريف، منشورات أكاديمية المملكة المغربية، ط 1 / 1984.
18. السنة بين أهل الفقه وأهل الحديث، للشيخ محمد الغزالي ط / 1409 - 11989، دار الشروق بيروت، لبنان.
19. سير أعلام النبلاء، للإمام الذهبي، ط 1 / 1405 - 1984، بتحقيق مجموعة من الأساتذة، مؤسسة الرسالة، بيروت.
20. شجرة النور الزكية، لمحمد مخلوف، المطبعة السلفية القاهرة.
21. شذرات الذهب، لابن العماد الحنبلي (1089هـ) ط 2 / 1979، دار المسيرة بيروت.
22. الصلة لابن الزبير، تحقيق بروفنصال، طبعة الرباط